

الفصل الأول

هدي النبي ﷺ في التفكير في الجنة والنار

فإن النبي ﷺ قد حرص أشد الحرص من خلال هديه قولاً وفعلًا على ترسيخ أهمية دوام ذكر الجنة والنار، والمتأمل لسنته ﷺ بعيني قلبه يجد ذلك واضحاً جلياً، فإراه حريصاً على ذكر الجنة والنار كل ليلة قبل نومه، قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ سورة الزمر» (السلسلة الصحيحة: ٦٤١)، وفيها قوله عز وجل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧١)، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧٣)، وقال جابر: «كان ﷺ لا ينام حتى يقرأ: (آلم تنزيل) السجدة و(تبارك الذي بيده الملك)» (السلسلة الصحيحة: ٥٨٥)، وفيها ذكر كثير للجنة والنار، وإراه كذلك حريصاً على التفكير في شأن الجنة والنار عند استيقاظه من نومه، فقد بات عنده ابن عباس ليلة فلما استيقظ قرأ آخر آيات سورة آل عمران: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا مُّسْتَحَنَّاكَ فَوَيْلًا لِّعَذَابِ النَّارِ (١٨) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَابٍ (١٩) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (٢٠) رَبَّنَا وَآيِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُغْوِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ (٢١) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَبْصِغُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْقِ بِعَصَاكَ مِنْ بَعْضِ قَالِ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٣٦﴾ لَا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿٣٧﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣٨﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلَا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
خَيْرٌ لِلْآزِبِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِقَائِمَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا
وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤١﴾ (آل عمران: ١٩٠ - ٢٠٠) - كما في الصحيح -
بل ورد عنه أنه كان يقرأ هذه الآيات كل ليلة ولكن سنده ضعيف - كما قال
ابن كثير، ويرواه كذلك حريصاً على ذكر ذلك في كل صلاة يصلّيها سواء كانت فرضاً
أو نفلاً، بل قد أمر كل مصلٍّ بذلك، فعن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا فرغ أحدكم
من التشهد الآخر، فليستعذ بالله من أربع؛ يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب
جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال»
(رواه مسلم والنسائي)، بل جعل أدعية لصلاة كلها تدور حول ذلك، فقد قال لرجل
ما تقول في الصلاة؟ فقال: أتشهد ثم أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما
أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال ﷺ: «حوها ندندن» (رواه أبو داود وابن ماجه
وصححه الألباني)، ويجده حريصاً في المجمع والمحافل على تذكير الناس بالجنة
والنار، فقد كان يقرأ في الجمعة بالأعلى والغاشية (رواه مسلم)، وأحياناً بالجمعة
والمنافقون (رواه مسلم)، وكان يصلي في العيدين بالأعلى والغاشية (رواه مسلم)،
وأحياناً بـ ق والقمر (رواه مسلم)، ويجده حريصاً في كل أسبوع في صلاة فجر يوم
الجمعة على تذكير الناس بالجنة والنار، فقد كان يقرأ «بآلم السجدة والإنسان في فجر
كل جمعة» (رواه البخاري ومسلم).

بل يجد حرص النبي ﷺ لنفسه وللمؤمنين معه على دوام تذكر الجنة والنار في كل الصلوات سواء السرية أو الجهرية، فقد كان يقرأ - في معظم أحيانه - في صلواته بالمفصل الذي هو أكثر أحزاب القرآن اشتمالاً على آيات الجنة والنار، ففي الفجر كان يقرأ فيها بطوال المفصل (رواه النسائي وأحمد وصححه الألباني)، وربما قرأ فيها بالواقعة (رواه أحمد وابن خزيمة وصححه الألباني)، وربما بالطور (رواه البخاري ومسلم)، وربما بـ ق (رواه مسلم)، وربما بقصار المفصل كـ «إذا الشمس كورت» (رواه مسلم)، وقرأ مرة بـ «إذا زلزلت الأرض» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، وفي الظهر (وكذا في العصر قاله الألباني) ربما قرأ بـ «إذا السماء انشقت» (رواه ابن خزيمة وصححه الألباني)، وربما قرأ بـ الطارق، و«السماء ذات البروج»، و«الليل إذا يغشى» (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني)، وفي المغرب يقرأ أحياناً بقصار المفصل (رواه البخاري ومسلم)، وأحياناً بطوال المفصل وأوساطه كسورة «محمد» (رواه ابن خزيمة والطبراني وصححه الألباني)، وأحياناً بالطور وأحياناً بالمرسلات (رواه البخاري ومسلم)، وفي العشاء يقرأ من وسط المفصل (رواه أحمد والنسائي)، وكان يقرأ فيها بالشمس وضحاها (رواه أحمد والترمذي وحسنه)، وقارة بـ «إذا السماء انشقت» (رواه البخاري ومسلم)، وكان يقرأ في هذه الصلوات غيرها أيضاً ولكن أكثر قراءته كانت لحزب المفصل، وهذه السور التي ذكرناها مليئة بذكر الجنة والنار، فعلى الدعاة والأئمة والوعاظ أن يكثرُوا من قراءة هذه السور ومن التركيز على حزب المفصل كما كان يفعل ﷺ. بل كان ﷺ يكثر من قراءة السور المليئة بذكر الجنة والنار على الدوام حتى شاب، ففي الحديث: «شبيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يساء لون وإذا الشمس كورت» (السلسلة الصحيحة: ٩٥٥). ويجد حرصه كذلك على أن يكون ذكر الجنة والنار ديدن كل مسلم على الدوام:

- فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار» (رواه الترمذي والنسائي) (انظر صحيح الجامع، ح ٦٢٨٠).

وعن أنس رضي الله عنه أيضاً قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (رواه البخاري).

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم منه ﷺ ذلك فراحوا ينشرون في الناس هذا الهدى؛ يقول د. خالد أبو شادي معلقاً على حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال». فهذه خمس مرات يومياً على الأقل يذكر فيها المسلم جهنم ويتعوذ منها جعلها الله فريضة يذكرها المرء إجبارياً، فلا مجال للنسيان أو الانشغال وعندما تنتهي صلاتك فلا تفعل جوارحك ما يوردك ما تعوذ منه لسانك منذ لحظات، وإلا كنت ...!! كنت ماذا؟! بل حرص النبي ﷺ على أن يُعلم أصحابه هذا الدعاء ويحفظهم إياه كأنه سورة من القرآن!! فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ «كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن، قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». وورث أبو هريرة رضي الله عنه المهمة واستمر في أداء الرسالة قائماً بها على أكمل وجه وذلك بطريقة مبتكرة وصيحة متكررة، فكان له صيحتان كل يوم: أول النهار وآخره، يقول: ذهب الليل وجاء النهار، وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمعه أحد إلا استعاذ بالله من النار. يا من يطمع في العتق من النار ثم يمنع نفسه الرحمة بالإصرار على كبائر الآثام والأوزار. استعذ بالله من النار! أ. هـ.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر فأسحر يقول: سمع سامع بحمد الله وحسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا وأفضل علينا، عائداً بالله من النار».

قلت: وكيف لا يكون هذا هو هديهم، وقد جعل الله ما في الدنيا مذكراً بالجنة والنار!! قال تعالى: ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْنَا أَلْتِي تُورُونَ ﴾ ﴿٧١﴾ «أَنْتُمْ أَفْشَأُكُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنِشِقُونَ» ﴿٧٢﴾ «نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَعْتًا لِلْمُقْوِينَ» ﴿٧٣﴾ (الواقعة: ٧١ - ٧٣).

وقال ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها وقالت: أكل بعضي بعضاً، فجعل لها نفسين: نفساً في الشتاء ونفساً في الصيف، فأما نفسها في الشتاء فزمهرير، وأما نفسها في الصيف فسموم» (السلسلة الصحيحة: ١٤٥٧)، وفي رواية: «أشد ما تجدون في الشتاء من البرد فمن زمهريرها، وأشد ما تجدون في الصيف من الحر فمن سمومها»، وكان أبو الدرداء يقول: «نعم البيت الحرام يذهب الوبس ويذكر النار» (رواه البيهقي في السنن الكبرى).

وكان كثير من السلف إذا مرّ بالحدادين استعاذ بالله من النار، وإذا مرّ بسوق الرياحين (أماكن تباع فيها العطور الطيبة الرائحة - والله أعلم -) سأل الله الجنة.

الفصل الثاني

لا ينال العبد الجنة ولا ينجو من النار بغير عمل

قال عليه السلام: «ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها» (السلسلة الصحيحة: ٩٥٣)، وقال أيضاً: «كما لا يُجتنى من الشوك العنب كذلك لا ينزل الأبرار منازل الفجار، فاسلكوا أي طريق شئتم، فأني طريق سلكتهم وردتم على أهلهم» (السلسلة الصحيحة: ٢٠٤٦). وعند مسلم: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه قال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها، فإذا هي قد حُفَّت بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفْتُ أن لا يدخلها أحد، وقال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها» (رواه أبو داود والنسائي).

وقال عليه السلام: «حُلوة الدنيا ثمرة الآخرة، وثمره الدنيا حُلوة الآخرة» (السلسلة الصحيحة: ١٨١٧).

قلت: فمن منع نفسه من غيرها في الدنيا لم يتحسر يوم القيامة ومن ركب الشهوات ندم حين لا ينفع الندم، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل أحد الجنة إلا أُرِيَ مقعده من النار لو أساء ليزداد

شكراً، ولا يدخل النار أحدٌ إلا أُرِيَ مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة، ولا يدخر ذلك له في الآخرة فقط بل من ساعة موته؛ فقد روى مسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «إذا مات الرجل عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فالجنة، وإن كان من أهل النار فالنار، قال: ثم يُقال: هذا مقعدك الذي تبعث إليه يوم القيامة».

قال د. خالد أبو شادي: وهو يتحدث عن بيعة العقبة التي بايع فيها سبعون من الأنصار رسول الله ﷺ؛ قام أسعد بن زرارة رضي الله عنه وهو أصغر السبعين فقال: رويداً يا أهل يثرب!! إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا جميعاً: أمط يدك يا أسعد، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها، فقاموا إليه يبائعونه رجلاً رجلاً يأخذ عليهم شرطه ويعطيهم على ذلك الجنة.

وقال أيضاً: واعجباً!! قوم أيقنوا بالجنة ولما يمضي على إسلامهم سوى برهة قصيرة من الزمن، فمنهم من أسلم منذ يوم واحد، ومنهم من أسلم من يومين، ومنهم من أسلم من شهر أو شهرين، وأقدمهم إسلاماً من أسلم منذ ستين!! وبرغم ذلك ومع أن الجنة غيب لم يروه فهم يبدلون في سبيلها أغلى ما يملكون: النفس والمال ويتعرضون لأخطر ما يكون، ونحن نسمع عن الجنة منذ وعينا طوال عمرنا وما دفعنا نفس الثمن، فهل أيقنت نفوسنا هذا اليقين؟! وهل نحن على استعداد لنفس البذل؟!.

يقول ابن القيم رحمه الله: «النعيم لا يدرك بالنعيم وإن ما أثر الراحة فاتته الراحة، وبحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرصة لمن لا هم

له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة» (مفتاح دار السعادة: ٢ / ١٥).

وهذا ما يحدد لك طريق التعامل الصحيح مع نفسك التي بين جنبيك، لذا كان من الوصايا الذهبية «احذر نفسك، فما أصابك بلاء قط إلا منها، ولا تهاونها، فوالله ما أكرمها من لم يهنها، ولا أعزها من لم يذلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يتعبها، ولا أمنتها من لم يخوفها، ولا فرحها من لم يحزنها» (الفوائد ص: ٦٨). أ. هـ